

الازدواجية اللغوية بين العربية الفصحى واللهجات الحديثة

الأستاذ الدكتور أحمد هاشم السامرائي

جامعة نزوى . كلية العلوم والآداب . قسم اللغة العربية

(سلطنة عمان)

ملخص البحث

تعدُّ اللغةُ الأمُّ الحصنَ الحاميَ لأبنائها من التششت العلمي والفكري، إذ إن ثنائية التلازم بين اللغة والمتكلم واجبة التحقق، فضلاً عن أن ثقافة اللغة ترتقي بثقافة أبنائها، والعكس صحيح، حتى صار من بديهيات الدرس اللغوي أن اللغة الراقية تدل على رُقي أبنائها، واللغة البدائية تدل على بدو أبنائها. ولما كانت علاقة اللغة بالمتكلم متلازمة إلى هذا الحد، فلا بد للمتكلم من الحفاظ على لغته من آفات الزمن، ومنها الازدواجية، إذ يحاول الكثير من المتكلمين، حين تعجز عقولهم عن مواكبة تطور لغتهم، إلى العدول عنها إلى اللغة المحلية، أو ما يسمى باللهجة العامية، ومن خلال دراسة واقع اللغات العالمية في العصر الحديث نجد أن اللغة العربية من أكثر اللغات التي تتعرض إلى مثل هذه الظاهرة، وهي ظاهرة شغلت الكثير من الدارسين، بعدما رأينا الفصحى أصبحت تنفلت من صدور أبنائها، حتى أضحت بحاجة إلى وقفة موحدة وجادة أمام هذه الهجمات، ومن منطلق الحفاظ على سلامة اللغة العربية أعرض هذه المشكلة في بحثي الموسوم: "الازدواجية اللغوية العربية الفصحى مع اللهجات الحديثة". اقتضت طبيعة البحث أن يكون على تمهيد ودراسة وخاتمة، وعلى النحو الآتي: التمهيد: تناولت فيه واقع اللغة العربية ولهجاتها في العصر الإسلامي الذهبي، من خلال ولادة اللهجات وتوحيدها. الدراسة: تناولت فيها واقع اللغة العربية في العصر الحديث، ولكي يكون البحث مركزاً على الجوانب المهمة، بدأت الدراسة من القرن الماضي إلى يومنا هذا. الخاتمة: وذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها. وفي الختام أدعو الله العلي القدير أن يوفقني في عملي هذا، وأن يلهمه القبول في مشاركته، وأن يوفق العاملين على المؤتمر لما يحبه ويرضاه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مدخل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، سيّد الأوّلين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين . يرمي هذا البحث إلى دراسة ظاهرة مهمّة من الظواهر التي تواجه اللغة العربيّة في العصر الحديث، وهي ظاهرة (الازدواجيّة اللغويّة)، التي أتت على مجالات اللغة كافّة، أدباً وثقافةً وإعلاماً وعلمًا وغيرها، فتناولت فيه مصطلح (الازدواجيّة اللغويّة) مفهومًا ونشأةً وتطوُّراً، والفرق بينه وبين مصطلح (الثنائيّة اللغويّة)، ورجّحت بينهما الأسلم في الاستعمال، ثمّ تناولت أبرز المجالات التي تأثّرت بـ (الازدواجيّة)، وهي : (لغة الإعلام، ولغة الأدب)، وبيّنت فيها ما يثبت التّأثير الكبير باللهجات المحليّة الشائعة .

مشكلة البحث

لما كانت علاقة اللغة بالمتكلم متلازمة إلى حد كبير، فلا بد للمتكلم من الحفاظ على لغته من آفات الزمن، ومنها (الازدواجية)، فيحاول الكثير من المتكلمين، حين يعجز معجمهم اللغوي عن زفدهم بما يحتاجونه من ألفاظ، العدول عن الفصحى إلى اللغة المحكية، أو ما يسمى باللهجة العامية، واللغة العربية من اللغات التي تعرضت إلى مثل هذه الظاهرة، وهي ظاهرة شغلت الكثير من الدارسين، بعدما رأينا الفصحى أصبحت تنفلت من صدور أبنائها، حتى أضحت بحاجة إلى وقفة موحدة وجادة أمام هذه الهجمات .

أسئلة البحث

يريد البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية :

1. ما مدى العلاقة بين الفصحى الحديثة ولهجاتها من ناحيتي التأثير والتأثير ؟
2. ما المجالات التي تأثرت ب (الازدواجية) كثيراً ؟
3. هل حافظ المتكلم العربي على فصاحته تجاه الانفتاح الحضاري والثقافي ؟

أهداف البحث

يحاول البحث الوصول إلى ما يأتي :

1. الكشف عن جانب مهم من واقع اللغة العربية في العصر الحديث .
2. إبراز أهمية العربية الفصحى في المجالات العلمية والثقافية .
3. معالجة ظاهرة (الازدواجية اللغوية) ووضع الحلول الملائمة لها .

منهج البحث

اعتمدت في بحثي هذا المنهج الوصفي في عرض الظواهر اللغوية مع الاستعانة بالمنهج التاريخي في مواضع لرصد التطور اللغوي . وفي الختام أدعو الله العليّ القدير أن يوفقي في عملي هذا، وأن يلهمه القبول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين" والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مصطلح (الازدواجية اللغوية)

اعتنى المسلمون باللغة العربية وانكب العلماء على تسهيلها وتيسيرها، فوضعوا المعاجم التي تفسر معاني مفرداتها، وقعدوا القواعد التي تبين معنى الجملة العربية، وطريقة تركيبها والتعبير الفصيح والصحيح فيها، وفعل البلاغيون الشيء ذاته، إذ بينوا الفرق بين الأسلوبين الجميل وغير الجميل، فتوالت العلوم المختلفة، من نظرية وعملية، وتكلم المسلمون جميعاً بالعربية، ويكتبون ويؤلفون بها،

وانتشرت اللغة العربية في أغلب البلدان، فقال الأب أنستاس الكرمللي : ((إنَّ لسان العرب فوق كلِّ لسان، ولا تُدانيها لسان أخرى من ألسنة العالم جمالاً، ولا تركيباً، ولا أصولاً))⁽¹⁾ .

وتفتح كتب التّراجم لترى آلاف العلماء من غير العرب في نسبهم، ولكنهم كانوا مسلمين في عقيدتهم، خلّفوا لنا تراثاً ضخماً رائعاً وخالداً في شتى العلوم والفنون العربية، ولعلَّ ما رواه الجاحظ عن موسى بن سيّار الأسواري، ((وكان من أعاجيب الدُّنيا، كانت فصاحته بالفارسيّة في وزن فصاحته بالعربيّة، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسّرُها للعرب بالعربيّة، ثمَّ يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسّرُها لهم بالفارسيّة، فلا يدري بأيّ لسان هو أبين))⁽²⁾ .

وفي ظلِّ شيوع العربيّة الفصحى لغويّاً نجدها في نزاع مستمرٍّ مع اللهجات المحليّة، لتكون (الازدواجيّة اللغويّة) حاضرة في كلِّ زمان ومكان .

لم يحظ مصطلح (الازدواجيّة اللغويّة) بدراسات حديثة كافية لوضع معالمه وحدوده وأسسهِ وسماته، فضلاً عن تحديد مفهومه، وهو ما أدّى إلى حدوث اضطراب كبير بين اللسانيّين القلائل الذين تناولوه بحثاً، وزاد من هذا الاضطراب أن اقترن بمصطلح (الثنائيّة اللغويّة)، فتبادل المصطلحان أدوار الاستعمال، فتارة نجد من يستعمل (الازدواجيّة)، وتارة أخرى نجد من يستعمل (الثنائيّة)، ولكشف معالم هذين المصطلحين وتحديد المصطلح الأسلم استعمالاً سأتناولهما بشيء من الإيجاز .

وضع اللغويّ الفرنسيّ وليم مارسيه (William Marçais) تعريفاً لـ (الازدواجيّة)، فقال : ((هي التّنافس بين لغة أدبيّة مكتوبة ولغة عاميّة شائعة للحديث))⁽³⁾ .

نلاحظ من هذا التّعريف أنّ (الازدواجيّة) متحقّقة بوجود مجموعة من الأسس، وهي :

أ. المنافسة بين مستويين لغويّين .

ب. التّفاوت بين المستويين من ناحية الفصاحة .

ت. التّفاوت بين المستويين من ناحية الاستعمال .

ولعرض هذه الأسس وتطبيقها على الشّائع اللغويّ في الاستعمال نجد ما يأتي :

الأساس الأول : صرّح مارسيه أنّ (الازدواجيّة) بين اللغة الأدبيّة والاستعمال العامّيّ، ويطرح هذا أمامنا سؤالين هما :

– هل يشترط في التّنافس انتماء المستويين اللغويّين إلى عائلة لغويّة واحدة ؟

– ما حكم التّنافس بين أكثر من مستويين لغويّين ؟

(1) الكرمللي: أنستاس ماري، نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاها 1 .

(2) الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين 1 / 193 .

(3) الزغلول، محمد راجي : ازدواجية اللغة 120 .

الواضح من النَّصِّ السَّابِقِ عد اشتراط انتماء المستويين إلى لغة واحدة، وبناءً عليه يعدُّ التَّنَافَسُ بين العربيَّة ولهجتها، أو بين العربيَّة ولهجات اللغات الأخرى في المناطق غير العربيَّة الخاضعة للحكم العربيِّ، كمنطقة كردستان العراق أو الأمازيغ في المغرب العربيِّ، أو بين لغة أخرى ولهجات العربيَّة في المناطق العربيَّة الخاضعة لحكم غير العرب، كالأحواز في إيران ولواء الاسكندرونة في تركيا، أو بين العربية ولهجات غير العرب اللذين ينتمون إلى البلاد العربيَّة، كالمسيحيِّين واليهود والإيزيديِّين والصَّابئة والأفارقة وغيرهم، من (الازدواجيَّة اللغوية)، بعبارة أدقَّ يمكن تحديد التَّنَافَسِ بوجود مستويين لغويِّين عند متكلِّم واحد .

لم تقتصر (الازدواجيَّة) على وجود مستويين لغويِّين، إذ تتعرَّض لغة المتكلِّم إلى أكثر من مستويين، فمثلاً :

– مستوى اللغة الأمِّ الفصيح .

– المستوى العامِّي المستعمل في الحياة اليوميَّة .

– لغة البلد الأمِّ .

– المستوى العامِّي المتولَّد من لغة البلد الأمِّ .

فعلى سبيل المثال نجد المتكلِّم العراقيِّ من القوميَّة الكرديَّة يتعرَّض لأكثر من مستوى لغويِّ، وهي : المستويان الفصيح والعامِّي في لغته الأمِّ (الكرديَّة)، والمستويان الفصيح والعامِّي في لغة البلد الأمِّ (العربيَّة) وغيره من القوميَّات غير العربيَّة، أو العرب اللذين يعيشون في بلاد غير عربية، ففي ظلِّ هذا التَّنَافَسِ نجد الصِّراع بين المستويات اللغويَّة على أشدِّه، وبناءً عليه يبدو لي أنَّ (الازدواجيَّة) لا تقتصر على مستويين لغويِّين، كما صرَّح به مارسيه، وإذا أردنا أن نلتمس مخرجاً لما ذهب إليه نجعل أقلَّ (الازدواجيَّة اللغويَّة) التَّنَافَسِ بين مستويين لغويِّين .

الأساس الثَّاني : نلاحظ من نصِّ مارسيه أنَّه حدَّد المستويين من ناحية الفصاحة، بقوله : (لغة أدبيَّة ... ولغة عاميَّة)،

وهنا يظهر السُّؤالان الآتيان :

– هل يشترط في المستوى الأوَّل أن يكون لغة أدبيَّة؟ وما مواصفات هذا المستوى ؟

– هل يشترط في المستوى الثَّاني أن يكون لغة عاميَّة ؟

الواضح من نصِّه أنَّه اشترط اللغة الأدبيَّة، ولكن ما مدى صحَّة هذا الشَّرط؟

قبل الحكم على صحَّة هذا الشَّرط أو عدمها لا بدَّ لي أن أحدِّد مواصفات اللغة الأدبيَّة، فمصطلح (اللغة الأدبيَّة) يستعمل للدَّلالة على المستوى اللغويِّ المستعمل في التُّصوص الأدبيَّة المختلفة، شعريَّة أم نثريَّة، وهذا يستدعي رُقِّيَّ هذا المستوى، فهو أعلى مستويات الفصحى، فإذا كان هذا ما أراده مارسيه فأنا أخالفه فيه، لأنَّ (الازدواجيَّة) لا تتقيَّد بالمستوى الأدبيِّ الرَّقِّي، وإمَّا نجدها في المستوى اللغويِّ المستعمل في لغة الكتابة، وهو ما يسمَّى بـ (المستوى البليغ)⁽⁴⁾، وليس محصوراً في مستوى النَّصِّ الأدبيِّ، وممَّا يؤيِّد ما

(4) تتحدَّد مستويات الأداء في أي لغة بثلاثة مستويات هي :

ذهبت إليه أن اللغوي شارل فرجسون (Ferguson charles) حدّد في العام 1959 م المستويات اللغوية بنمطين : نمط اللهجات، ونمط عالي التّصنيف، ويسمّى الثّاني بفوقى المكانة، ((ويستعمل لمعظم الأغراض الكتابيّة والمحادثات الرّسميّة، لكنّه لا يُستعمل من قبل [كذا] أيّ قطع من قطاعات الجماعات المحليّة للمخاطبة أو المحادثة العاديّة))⁽⁵⁾ .

وهنا قد يقول القائل : إن استعمال التّركيب (لغة أدبيّة) قد يدلّ على ما ذكرته، لأنّه قال : (مكتوبة)، وهي تدلّ على كلّ مكتوب، فضلاً عن أن ترجمة النّصّ بـ (أدبيّة) قد لا يُقصدُ بها لغة النّصّ الأدبيّ .

أقول : قد يكون هذا الكلام صحيحاً، ولكننا نعدم إلى وضع مفهوم واضح لمصطلح (الازدواجيّة)، نتخلّص به من كلّ غموض يتعرّض له القارئ .

إذاً بعد أن اتّضحت لنا الصّورة نقول : لا يشترط في المستوى الأوّل أن يكون لغة أدبيّة، وإنّما يكون مستوى يتخلف عن المستوى الثّاني في المميّزات اللغويّة .

يجري الكلام السّابق على المستوى اللغويّ الثّاني الذي حدّده بقوله : (لغة عاميّة)، إذ لا يشترط في (الازدواجيّة) أن يكون التّنافس بين لغة ولهجتها، فقد يكون بين لغتين منفصلتين، وبهذا لا يكون شرط المستوى العامّيّ متحقّقاً .

نخلص ممّا سبق ذكره في الأساس الثّاني أنّ (الازدواجيّة) تكون بين المستويات اللغويّة الآتية :

اللغة (2)		اللغة (1)	
المستوى العامّي	المستوى الفصيح	المستوى العامّي	المستوى الفصيح
ث	ت	ب	أ

وبحسب الآتي :

- مستوى لغويّ فصيح = مستوى لغويّ فصيح (أ، ت) .

- مستوى لغويّ فصيح = مستوى لغويّ عامّيّ شائع (أ، ب) و (أ، ث) و (ت، ث) و (ت، ب) .

- مستوى لغويّ عامّيّ شائع = مستوى لغويّ عامّيّ شائع (ب، ث) .

الأساس الثّالث : نلاحظ من نصّ مارسيه أنّه حدّد المستويين من ناحية الاستعمال، فقال : (مكتوبة ... شائعة)، وإذا كنت أوافق في وصف المستوى الثّاني بأنّها شائعة، فلا أوافق في اشتراط الكتابة في المستوى الأوّل، لأنّ التّنافس اللغويّ معتمد على

- المستوى البليغ الفصيح : وتمثله لغة النصوص الأدبية المختلفة .

- المستوى البليغ : وتمثله لغة الإعلام والمحاضرات والخطب الرّسمية وغيرها .

- المستوى الفصيح : وتمثله الخطاب اليومي الذي يستعمله جميع المتكلمين .

⁽⁵⁾ الزغلول : المصادر السابق 120 . 121، وذكر فرجسون مجموعة من الأمثلة على النمطين، لا مجال لذكرها .

استعمال المستويين أو أكثر استعمالاً لغوياً، وهذا لا يتحقق إلا بوجود الاستعمال المنطوق، بحسب ما نصّت عليه الدّراسات اللسانية الوصفية، وهو الاعتماد على اللغة المنطوقة، فضلاً عن ذلك فإنّ ما يستوقفني في كلامه قوله : (شائعة للحديث)، وهذا يوحي بوجود شرط الاستعمال المنطوق في المستوى الثّاني، فلماذا نفتقده في المستوى الأول ؟

بعد هذا العرض الموجز لما تضمّنه تعريف مارسيه يمكن لي أن أستدرك عليه أساساً رابعاً لم يذكره، وهو تحديد البيئة اللغوية، ف (الازدواجية) تحصل في بيئة لغوية محدّدة لا أنّها تحصل في عشوائيات جغرافية .

إذا صار واضحاً لنا حدود هذا المصطلح وأسسها التي يقوم عليها، فيكون تحديد مفهوم (الازدواجية) بأنّه : تنافس مستويين لغويين أو أكثر في بيئة لغوية واحدة .

استعملت الدّراسات اللسانية هذا المصطلح، وهو ترجمة لمصطلح (LaDiglossia) اللاتيني، الذي نحتّه اللغوي مارسيه⁽⁶⁾، ثمّ انتقل إلى اللغة الانكليزية بلفظ (Diglossia) وهو متكوّن ((من سابقة يونانية (Di) معناها : مثنى أو ثنائي أو مضاعف، و (gloss) ومعناها : لغة، ولاحقة (ia) للحالة⁽⁷⁾ .

اضطربت أقوال اللسانيين الغربيين والعرب في استعمال مصطلحي (الازدواجية اللغوية) و (الثنائية اللغوية)، وسبب هذا الاضطراب هو ترجمة المصطلحين (Diglossia) (Bilingualism)، وجرّ هذا الاضطراب إلى عدم الاتفاق على ميدان دراسة كلّ مصطلح، فمنهم من جعل ميدان (الازدواجية اللغوية) اللغة ولهجاتها وميدان (الثنائية اللغوية) لغتان مختلفتان، ومنهم من عكس هذين الميدانين .

والذي يبدو لي أنّ الصّواب ما ذهب إليه الدكتور نهاد الموسى من أنّ ميدان (الازدواجية اللغوية) شكلان أو مظهران أو مستويان لغويان في إطار اللغة الواحدة، لأنّها مأخوذة من الجذر اللغويّ (زوج) الدّالّ على الاقتران والمشاكلّة، وهذا لا يتحقّق إلاّ في اللغة الواحدة، في حين يكون ميدان (الثنائية اللغوية) المستويات اللغوية في لغات متباينة، لأنّه مأخوذ من الجذر (ثنى) الدّالّ على مطلق العدد، فيستعمل في التّضادّ كالخير والشّرّ والنور والظلام⁽⁸⁾ .

(الازدواجية) والعربية التراثية

لم تكن (الازدواجية اللغوية) حديثة عهدٍ باللغة العربية، إذ لها جذور في العربية التراثية، وإن اختلف اللغويون في تحديد بدايتها، فذهب الدكتور إميل بديع يعقوب إلى أنّ ظهور (الازدواجية) بعد الفتح الإسلاميّ واختلاط الأمم بالعرب، فأدّى إلى

⁽⁶⁾ الزغلول : المصدر السابق 120 .

⁽⁷⁾ محمود : إبراهيم كايد، العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية 55 .

⁽⁸⁾ الموسى : نهاد، الازدواجية في العربية 84 .

- قال I : **چ و و و و و و چ** [سورة البقرة، من الآية : ٣٥]، ف (الرِّغْد) : الخصب بلغة طيِّع⁽¹²⁾ .
 - قال I : **چ ك ك ك ك ك گ گ چ** [سورة البقرة، من الآية : ٦٥]، ف (خَاسِيَيْن) : صاغرين بلغة كنانة⁽¹³⁾ .
 - قال I : **چ ث ث ث ث ث ق ق و و چ** [سورة البقرة، من الآية : ٩٠]، ف (اشْتَرَوْا) : باعوا بلغة هُدَيْل⁽¹⁴⁾ .
 - قال I : **چ د د د د د ذ ذ چ** [سورة البقرة، من الآية : ٩٠]، ف (بَاعُوا) : استوجبوا بلغة جرهم⁽¹⁵⁾ .
 - قال I : **چ ب ب ب ب ب پ پ پ پ پ ن ن ن ن ن د د چ** [سورة البقرة، من الآية : ١٩٧]، ف (الرَّثْث) : الجماع بلغة مَدْحَج⁽¹⁶⁾ .
 - قال I : **چ ذ ذ ذ ذ ذ ط ط ز ز ر ر چ** [سورة البقرة، من الآية : ٢٣٢]، ف (تعضلوهنَّ) : تحبسوهنَّ بلغة أزد شنوءة⁽¹⁷⁾ .
- وغيرها من التُّصُوص .

القراءات القرآنيَّة

شاع ورود القراءات القرآنيَّة بما يوافق لهجات العرب، ولا فرق في ذلك بين القراءات السَّبْعِيَّة المتواترة والثَّلَاثَة المكمَّلة والشَّاذَّة، وسأذكر من كلِّ نوع من هذه القراءات قراءتين .

أ. القراءات السَّبْعِيَّة المتواترة :

⁽¹²⁾ ينظر : ابن سلام : لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم 46، وابن حسنون : اللغات في القرآن 20، والوزان الحنفي : لغات القرآن المروية عن ابن عباس . 36

⁽¹³⁾ ينظر : ابن سلام : لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم 48، وابن حسنون : اللغات في القرآن 20، والوزان الحنفي : لغات القرآن المروية عن ابن عباس . 37

⁽¹⁴⁾ ينظر : ابن سلام : لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم 49 . 50، وابن حسنون : اللغات في القرآن 20، والوزان الحنفي : لغات القرآن المروية عن ابن عباس . 38

⁽¹⁵⁾ ينظر : ابن سلام : لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم 51، وابن حسنون : اللغات في القرآن 20، والوزان الحنفي : لغات القرآن المروية عن ابن عباس . 37

⁽¹⁶⁾ ينظر : ابن سلام : لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم 57، وابن حسنون : اللغات في القرآن 21، والوزان الحنفي : لغات القرآن المروية عن ابن عباس . 41

⁽¹⁷⁾ ينظر : ابن سلام : لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم 60، وابن حسنون : اللغات في القرآن 22، والوزان الحنفي : لغات القرآن المروية عن ابن عباس . 43

- قال رسول الله ρ : (كَأَنَّهُمْ بَيضٌ مَكْنُونٌ أَوْ لُؤْلُؤٌ مَمْنُونٌ)⁽²⁶⁾، و (مَكْنُونٌ) لغة قيس⁽²⁷⁾ .

الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ

لم يستطع الشَّاعر العربيُّ أن يستغني عن اللهجات العربيَّة في شعره، فالمطلع على ديوان الشَّعر العربيِّ يجد هذا واضحًا، فضلاً عمَّا ذكرته مصادر اللغة، ويمكن تقسيم هذا الاستعمال على صورتين شائعتين هما :

- استعمال الشَّاعر لغة قومه، وسأذكر شاهدين من عصر ما قبل الإسلام، كقول علقمة الفحل⁽²⁸⁾ :

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبِيٌّ عَلَى شَرَفٍ مُفَدِّمٌ بِسَبَا الْكَتَّانِ مَلْثُومٌ

فقال : (ملْثُوم)، من الفعل (لَثِمَ)، وهي لغة بني تميم⁽²⁹⁾، وعلقمة تميمي⁽³⁰⁾، وقول عبيد بن الأبرص⁽³¹⁾ :

عَنِ الْوَيْثِرِ حَتَّى أَحْرَزَ الْوَيْثِرَ أَهْلُهُ فَأَنْتَ ثَبَكِّي إِثْرُهُ مُتَهَالِكَا

فقال : (الوَيْثِر)، بكسر الواو، وهي لغة بني أسد⁽³²⁾، وعبيد أسدي⁽³³⁾ .

- استعمال غير لغة قومه، وسأذكر شاهدين من عصر ما قبل الإسلام، كقول المستوغر بن ربيعة⁽³⁴⁾ :

هَلْ مَا بَقِيَ إِلَّا كَمَا قَدْ فَاتَنَا يَوْمٌ يَمُرُّ وَلَيْلَةٌ تَحْدُونَا

فقال : (بَقِيَ)، وهي لغة طيء⁽³⁵⁾، والمستوغر تميمي من بني سعد بن زيد مناة⁽³⁶⁾، وقول طرفة بن العبد⁽³⁷⁾ :

خَالَتِي وَالنَّفْسُ قِدْمًا إِنَّهُمْ نَعِمَ السَّاعُونَ فِي الْقَوْمِ الشُّطْرُ

⁽²⁶⁾ جزء من حديث ورد في : الدارمي : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، سنن الدارمي 110، رقم الحديث (52) .

⁽²⁷⁾ الأخفش : أبو الحسن سعيد بن مسعدة، معاني القرآن 2 / 279 . 280 .

⁽²⁸⁾ الشنتمري، الأعلام أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى، ديوانه 59 .

⁽²⁹⁾ ينظر : الأزهرى : أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة (لثم) 15 / 367 .

⁽³⁰⁾ ينظر : ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء 130 .

⁽³¹⁾ نصار : دكتور حسين، ديوانه 94 .

⁽³²⁾ ينظر : القالي : أبو علي إسماعيل بن القاسم، أمالي القالي 1 / 13 .

⁽³³⁾ ينظر : ابن قتيبة : المصدر السابق 166 .

⁽³⁴⁾ البيت له في : البلوي : أبو الحجاج يوسف بن محمد، ألف با 2 / 88 .

⁽³⁵⁾ ينظر : الجوهري : أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح (قلا) .

⁽³⁶⁾ ينظر : المرزباني : أبو عبيد الله محمد بن عمران، معجم الشعراء 23 .

⁽³⁷⁾ الشنتمري، الأعلام أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى، ديوانه 79 .

فقال : (نِعَم)، وهي لغة هُدَيْل⁽³⁸⁾، وطرفة بكريٍّ من بني ضبيعة بن قيس⁽³⁹⁾.

تدلُّ هذه الشُّواهد وغيرها على أنَّ (الازدواجية اللغوية) موجودة في العربية التراثية من زمن بعيد، وليست حادثة كما يظنُّ بعضهم .

(الازدواجية) ولغة الإعلام

تعدُّ لغة الإعلام من أكثر اللغات تأثُّرًا بالتطوُّر اللغويِّ، لأنَّها تواكب تغيُّرات المجتمعات اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا وغيرها، وتتداخل حينئذٍ المستويات اللغوية، فيعمد محرِّرو الأخبار والصحف ووسائل الإعلام الأخرى إلى اقتناص الأساليب والألفاظ المتداولة لدى النَّاس، بعبارة أدقَّ استعمال أيسر المستويات اللغوية وأقربها فهمًا للمواطن، والحقُّ معهم لأنَّهم يحاكون شرائح المجتمع كافة، فليست وسائل الإعلام موجهة إلى شريحة دون أخرى، كالأدباء أو الشعراء أو المثقِّفين أو الأساتذة وغيرهم، وإنما موجهة إلى المتعلِّم وغيره .

لم تقتصر التَّحولات اللغوية في لغة الإعلام على ما يطرأ على المجتمع من تغيُّرات، وإنما تتعدَّاه إلى سيطرة السِّياسة عليها، وهذا ما نشاهده ونسمعه ونقرأه في أغلب وسائل الإعلام العربية، فاللغة الغالبة عليه توافق توجُّهات الحاكم الفكرية والسِّياسية والدينيَّة في الألفاظ والأساليب والمستويات، حتَّى يلمح المتابع تغيُّر لغة الإعلام بتغيُّر نظام الدَّولة السياسي .

اتَّسعت وسائل الإعلام وتنوَّعت بين المقرَّوة والمسموعة والمرئية، فكانت المرئية والمسموعة (التِّلْفزيون والإذاعة) أكثر تأثُّرًا بـ (الازدواجية اللغوية) في حين كانت المقرَّوة (الصحف والمجلاَّت والجرائد أقلَّ تأثُّرًا .

لم يكن تأثُّر وسائل الإعلام بـ (الازدواجية اللغوية) قريبًا، وإنما حدث قبل أكثر من قرن، ونستطيع أن نحدِّد أولى الوسائل تأثُّرًا، وهي الصحف والمجلاَّت، فكان ظهورها الأوَّل في مصر، إذ سبقت الدُّول العربية في استعمال اللهجة العامية إعلاميًا، وشاع بمرور الزَّمن حتَّى يومنا هذا، وأستطيع أن أقول : إنَّ تأثُّر الصحف بـ (الازدواجية) اليوم أكثر من السَّابق .

ففي العام 1881 م أصدر الأديب عبد الله الندم جريدة (التَّنكيث والتَّبكيث)، وهي جريدة نقدية ساخرة من الوضع السِّياسي في مصر، والمطلَّع على هذه الجريدة يجد استعمال اللهجة المصرية في مواضع يستدعيها مقام النَّصِّ، وليست غالبية على لغتها، وظهرت بعدها صحيفة (البعكوكة)، وهي جريدة هزليَّة أصدرها محمود عزَّة المفتي في العام 1934 م، وأكمل مسيرتها عبد الله أحمد عبد الله الشَّهير بـ (ميكي ماوس) .

كان لشيوع هذا النَّوع من الصحف أن وصل الحال بها إلى قيام يعقوب صنوع بإصدار (12) اثني عشرة صحيفة ساخرة، ومنها : (أبو نظارة، وأبو نظارة زرقاء، وأبو صفارة، وأبو زمارة) وغيرها .

وظهر هذا النَّوع من التَّأثُّر في الصحف العراقية، فمن ذلك جريدة (مرقة الهندي)، وهي فاتحة عهد الصحافة الساخرة في العراق فلم تسبقها أيُّ صحيفة عراقية أخرى، وصدرت في البصرة في العام 1909 م، وكان صاحبها أحمد حمدي المشرافي ومديرها

(38) ينظر : سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب 4 / 439 . 440 .

(39) ينظر : الأمدي : أبو القاسم محسن بن بشر، المؤلف والمختلف 216 .

محمد حمدي، وصدرت أيضًا جريدة (التّوادر) في العام 1911 في بغداد أصدرها نوره جي محمد الوهيب، وجريدة (جكة باز) التي صدرت في العام 1911 م ومسؤولها عبد المجيد خيالي وغيرها .

ظلت صحف الفكاهة والسخرية تصدر في العراق حتّى أصدر الصّحفيّ الفكاهيّ نوري ثابت في العام 1931 م جريدة (حبزوز)، فأخذت طابعًا فكاهيًا هزليًا واضحًا، وغلب عليها استعمال اللهجة العراقيّة، فكان ظهورها تحولًا كبيرًا في تأثر الصّحافة العراقيّة بـ (الازدواجيّة اللغويّة) .

لم تختلف الحركة الإعلاميّة في بيروت عنها في بغداد والقاهرة، فظهر التّأثر بـ (الازدواجيّة اللغويّة) في لغة الصّحافة اليوميّة والأسبوعيّة واضحًا، ومن ذلك صحيفة (الدّبّور) التي صدرت في العام 1932 م.

خرجت الصّحافة العربيّة عن حدود المجتمع العربيّ لنجدها في دول شرق آسيا، فنحى أصحابها منحى من سبقهم في استعمال اللهجات العربيّة المحليّة، ففي سنغافورة أصدر الصّحفيّ اليمينيّ فرج بن طالب الكثيريّ جريدتين باللغة الحضرميّة، أولاهما : جريدة (القصاص) في العام 1932 م، والثّانية : جريدة (الشّعب الحضرميّ) في العام 1934 م .

أقول : نلمح من هذا العرض أنّ (الازدواجيّة اللغويّة) في لغة الإعلام المقروء أسبق من المرئيّ والمسموع، ولعلّ بدايات استعماله كانت بدافع محاكاة شريحة مجتمعيّة محدّدة ومعينة، إذ الغالب على الصّحف المتأثّرة بـ (الازدواجيّة) التّهكم والسخرية والفكاهة والانتفاضة على الوضع السّياسيّ والاقتصاديّ القائم، وهذه الأمور تلامس حياة الفرد المتضرّر بها، وهو المواطن الفقير، فضلاً عن أنّ انتقاد الحال والسخرية من الأنظمة يكون باللهجة العاميّة أبلغ منه بالفصحى، لأنّنا نعلم أنّ الفصحى بعيدة عن الشّعب بجميع طبقاته، وبناء عليه يبدو لي أنّ هذا التّوع من الاستعمال اللغويّ لا يقدح في فصاحة اللغة أو ينقص منها، فإذا ما طالعنا مصادر الثّرات نجد أنّ العلماء أنفسهم يعدلون عن الفصحى إلى العاميّة إذا أرادوا موقفاً ساخراً .

وهنا يظهر أمامنا سؤال هو : هل اقتصر التّأثر بـ (الازدواجيّة) على الصّحافة السّاخرة والفكاهيّة ؟

أقول : لا يقتصر التّأثر على هذا التّوع من الصّحافة، وإنّما قد نجده في الصّحافة السّياسيّة والعلميّة، لأنّ هناك مجموعة من الأبواب لا تتناسب مع الفصحى، مثل رسوم الكاريكاتور، وهو باب لا تخلو منه جريدة أو مجلة، فضلاً عن أبواب التّسلية التي تتضمنها الصّحف المختلفة، وتحتوي هذه الأبواب على الطرائف والدّعابات والتعليقات السّاخرة، وهذا ليس مقتصرًا على نوع واحد من الصّحافة، وإنّما نجده في أغلب الصّحف إن لم تكن جميعها .

لم يختلف حال وسائل الإعلام المسموعة والمرئيّة عن المقروءة في تأثرها بـ (الازدواجيّة اللغويّة)، إذ بدأ هذا التّأثر واضحًا بمرور الزّمن، فالمتّبع لها يجد أنّ العربيّة الفصحى في العقود السّابقة كانت مستعملة في برامجها كافّة، العلميّة والثّقافيّة والفنيّة والسّياسيّة والرياضيّة وغيرها، فنكاد نفتقد اللهجة العاميّة تمامًا، ثمّ بدأ استعمال اللهجة تدريجيًا، فظهرت في البرامج السّاخرة والعلميّة والثّقافيّة وصولاً إلى برامج الأطفال، وهي محاولة لسلخ المعجم اللغويّ الذي يحمله الطّفل، وتحويله إلى معجم لهجيّ .

بدأت اللهجة العاميّة بالظهور علنًا أوّل أمرها في القنوات التّلفزيونيّة والبرامج الإذاعيّة في مصر، فكانت مواكبة للدّعوات الكثيرة التي ظهرت في مصر ضدّ العربيّة الفصحى، كتغيير الحرف العربيّ وإلغاء الفصحى وغيرها .

والَّذِي يبدو لي أنَّ سبب عزوف القنوات التِّلْفِزِيُونِيَّةِ والإذاعيَّةِ عن اللغة الفصحى واستعمال العامِّيَّةِ مجموعة أمور هي :

أ. إبعاد العربيِّ عن لغته الَّتِي تمثِّلُ هويَّته القوميَّةَ والدينيَّةَ .

ب. جهل العاملين في هذه القنوات بالعربيَّةِ الفصحى، سواء كانوا مذيِّعين أم محرِّري أخبار وبرامج .

ت. مواكبة التَّطوُّر العلميِّ والثَّقافيِّ الَّذِي يشهده العالم، إذ امتلأت الكتب بالمصطلحات غير العربيَّةِ، فسرت هذه المصطلحات إلى لغة الإعلام .

ث. تطبيق ما يسمى بـ (عولمة الإعلام) .

اتَّسعت الهوَّةُ بين العربيَّةِ الفصحى ولغة الإعلام لتتجاوز الكلام المستعمل في البرامج والأعمال التِّلْفِزِيُونِيَّةِ، فظهر استعمال العامِّيَّةِ في أسماء القنوات الفضائيَّةِ مثل : (نتج، وأفندينا، وحظو، والفرنكوش، وفرتكة، وهمبكة، وفتافيت، وست البيت)⁽⁴⁰⁾ وغيرها، فضلاً عن استعمال الأسماء غير العربيَّةِ لقنوات أخرى .

والَّذِي يبدو لي أنَّ استعمال الألفاظ العامِّيَّةِ أسماء لقنوات فضائيَّةِ إنما جاء ربطاً بين ما تقدِّمه هذه القناة والاسم، فالغالب عليها أنَّها قنوات مختصة بعرض المسلسلات والأفلام وبعضها خاصٌّ بصناعة الطَّعام، وهذا لا يتوافق إعلامياً مع اللغة الفصحى، فضلاً عن شدِّ انتباه المشاهد، لأنَّ هذه الأسماء لافتة للنظر .

وشاعت (الازدواجيَّة) أيضاً في أسماء البرامج المقدَّمة، فسابقاً كنا نسمع أسماء البرامج بالعربيَّةِ الفصحى، أمَّا الآن فقد شاعت العامِّيَّةُ حتَّى لا نكاد نجد الفصحى إلَّا في برامج ذات طابع خاصٍّ جدًّا، كالبرامج الدينيَّةِ أو العلميَّةِ أو السِّياسيَّةِ، في حين ابتعدت البرامج الثَّقافيَّةِ والفنيَّةِ والسَّاحرة وبرامج الأطفال وبرامج المطبخ عن الفصحى كثيراً، ومن أسماء هذه البرامج : (نفسنة، وتراحي، وصاية وصرماية، وصوغة) وغيرها .

وإذا أردنا أن ندخل إلى البرامج لنكشف عن مدى تأثرها بـ (الازدواجيَّةِ)، وأقصد اللغة المستعملة في تقديمها، نجد الأمر أكبر ممَّا سبق، فإذا كنَّا قد وجدنا التَّأثر في أسماء القنوات الفضائيَّةِ أو أسماء البرامج الفنيَّةِ والسَّاحرة وما يتعلق بالمطبخ فإنَّنا نجد تأثر الحوار أكثر وأوسع ليشمل البرامج الدينيَّةِ والعلميَّةِ والأدبيَّةِ، كبرامج الإعلاميّ عمرو خالد وغيره، وأستطيع القول إنَّنا نجد الفصحى في نشرات الأخبار فقط، وإن كانت فصحي مليئة بالأخطاء .

نلاحظ ممَّا سبق ذكره أنَّ لغة الإعلام تأثرت تأثراً كبيراً بـ (الازدواجيَّةِ اللغويَّةِ)، في محاولة منها لطمس معالم العربيَّةِ الفصحى وإبعاد المشاهد عنها، وليس هذا فحسب وإنما تصوير العربيَّةِ الفصحى على أنَّها جسم غريب يجب الابتعاد عنه وتجاوزه إلى ما هو أيسر وأسهل وأقرب إلى الفهم .

الازدواجيَّةُ (ولغة الأدب

⁽⁴⁰⁾ نلاحظ من هذه الأسماء وغيرها أنَّها قنوات مصرية، وهذا ما يؤيِّد ما ذكرته من أنَّ الإعلام المصري كان رائدًا في استعمال اللهجة المصرية .

تعدُّ اللغة المادَّة الرئيسيَّة للأدب، فهي كالفرشاة للرَّسام والألوان للصُّورة، فتتعدَّد صور استعمالها وتختلف مراميها، فيأخذ الأديب ما يوافق مراده ويعبر عن عواطفه وأحاسيسه، سواء كان النَّصُّ الأدبيُّ شعراً أم نثرًا، فهي بمثابة الرُّوح له، والشَّعر ((استعمال خاصُّ للغة))⁽⁴¹⁾، فالشَّعرُ لغةٌ يدخل في تراكيب معينة فيعطي كلُّ لفظ موضعَه في السِّياق الَّذي يبلغ فيه ما يريد من دلالات، ولا يمكن أن يبلغها لو تغيَّر هذا الموضع .

أحسَّ الأدباء بقيمة اللغة فراحوا يتوسَّعون في استعمالها، ولاسيَّما الشُّعراء، لأنَّهم يرون أنَّ لغة الشَّعر خروج عن المألوف ((وانتقال لغة الشَّعر من فضاء ما أسماه البلاغيُّون والنَّقَّاد الممكن إلى فضاءي الممتنع والمستحيل، هو في الواقع انزياح عن معيار قانون اللغة، وخرق لقواعدها وقوانينها وسننها))⁽⁴²⁾، فحاولوا كسر القيود التي فرضتها، بحسب رأيهم، اللغة الفصحى وخرجوا إلى فضاء رحب وواسع .

تأثَّر الأدباء، شعراء وروائيُّون، باللهجات قديمًا وحديثًا، وذكرت قبل قليل مجموعة من أبيات الشَّعر الجاهليِّ الَّذي تأثَّر باللهجات، أمَّا الأدب الحديث فكان التَّأثُّر واضحًا على نتاجه، ولاسيَّما الرِّواية، فقد سوَّغ توفيق الحكيم لنفسه هذا الاستعمال بقوله : ((في رواياتي ومسرحياتي لا أستطيع أن أجعل العتال أو الفرَّاش أو سائق التَّاكسي يتكلَّمون الفصحى، لأنَّ اللغة العامِّيَّة هي اللغة الطَّبِيعِيَّة بالنِّسبة لهم، فإذا جعلتهم يتكلَّمون الفصحى، سأخلق جوًّا مصطنعًا))⁽⁴³⁾ .

ولكي نحدِّد معالم هذا التَّأثُّر سأذكر الأسباب التي دعت الأديب إلى الاستعانة باللهجة والعدول عن الفصحى، وهي :

1. مراعاة المقام : يحظى المقام بمكانة متميِّزة في تحديد نمط الكلام وصناعة الأسلوب، إذ يأخذه المتكلِّم بالاهتمام في بناء الجملة وتركيبها، وبناء عليه نجد تفاوتًا واضحًا في الأسلوب اللغويِّ بين مقام ومقام، فلا يمكن أن نساوي مقام التَّريغيب بالتَّرهيب أو مقام الفرح بالحزن وغيرها، فيعمد القارئ إلى اختيار ألفاظه وتراكيبه بناء على ما يقتضيه المقام الَّذي هو فيه، وليس هذا فحسب وإنما يلقي المقام بظلاله على الصَّوت اللغويِّ وبنية الكلمة، فتتفاوت طبيعة الأصوات مجهورها ومهموسها أو شديدها ورخوها، لتناسب مقام الكلام، فضلًا عن اختلاف البنية الصَّرفيَّة للكلمة من تجرُّد وزيادة أو تخفيف وتشديد وغيرها، ولَمَّا كانت للمقام هذه المكانة العالية في أسلوب الكلام قالت العرب : (لكلِّ مقام مقال، ولكلِّ مقال مقام) .

شاع استعمال اللهجة في الأدب الحديث لضرورة يفرضها المقام على الشَّاعر، فمن ذلك قول بدر شاكر السَّياب⁽⁴⁴⁾ :

مَا زِلْتُ أَضْرِبُ مَتْرِبَ الْقَدَمَيْنِ أَشْعَثَ، فِي الدُّرُوبِ
تَحْتَ الشَّمُوسِ الْأَجْنَبِيَّةِ
مُتَخَافِقَ الْأَطْمَارِ، أَبْسَطُ بِالسُّؤَالِ يَدًا نَدِيَّةً
صَفْرَاءَ مِنْ دُلٍّ وَحُمَى : دُلٌّ شَحَاذٍ غَرِيبِ

⁽⁴¹⁾ درو : اليزابيث، الشعر كيف نفهمه وتذوقه 125 .

⁽⁴²⁾ سليمان : خالد، لغة الشعر بين الممكن والممتنع والمستحيل 269 .

⁽⁴³⁾ السرد بين الفصحى والعامية : الكتاب السوريون يدعون إلى اعتماد لغة سلسلة؛ متأرجحة بين الفصحى والعامية، جريدة الاتحاد .

⁽⁴⁴⁾ السياب : بدر شاكر، أنشودة المطر 12 .

بَيْنَ الْعُيُونِ الْأَجْنِبِيَّةِ
بَيْنَ احْتِقَارٍ، وَانْتِهَارٍ، وَازْوَرَارٍ .. أَوْ "خَطِيئَةٌ"
وَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ "خَطِيئَةٌ"
مِنْ ذَلِكَ الْإِشْفَاقِ تَعَصُّرُهُ الْعُيُونِ الْأَجْنِبِيَّةِ

فاستعمل كلمة (خَطِيئَةٌ)، وهي كلمة شائعة في اللهجة العراقية تستعمل في مقام التَّرْحُمِ والعطف، وأقرب ما يرادفها في الفصحى كلمة (مُسْكِينٍ)، إِلَّا أَنَّ كَلِمَةَ (خَطِيئَةٌ) أَبْلَغُ فِي التَّبْعِيْرِ عَنِ التَّرْحُمِ والعطف، فَأَرَادَ السِّيَّابُ ((أَنْ يَنْقُلَ لِلْقَارِئِ تِلْكَ الْحَالَةَ الْمَأْسَاوِيَّةَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا فِيهَا: (خَطِيئَةٌ)، وَهَذَا تَصْيِيرُ الْمَفْرَدَةِ قَادِرَةٌ عَلَى احْتِوَاءِ الْمَوْقِفِ بِرُمَّتِهِ وَالْإِيْمَاءِ بِهِ))⁽⁴⁵⁾.

وقريباً من هذا الاستعمال نجد الشَّاعِرَ الْعِرَاقِيَّ جَمَالَ حَاسِمٍ أَمِينٍ يَتَأَثَّرُ بِالْعَامِيَّةِ فِي قَوْلِهِ⁽⁴⁶⁾ :

(حَمَدٌ) الْآنَ لَا يَسْتَطِيعُ الْكَلَامَ، لِأَنَّهُ وَجَدَ مَرِيضًا ذَاتَ مَرَّةٍ يَحْتَاجُ إِلَى كَلِمَةٍ فَتَبَرَّعَ لَهُ بِحَنْجَرَةٍ .

(حَمَدٌ) مَكْرُودٌ .

(حَمَدٌ) لَا يَعْرِفُ الرَّاحَةَ .

فاستعمل الشَّاعِرُ كَلِمَةَ (مَكْرُودٌ)، وهي كلمة شائعة في اللهجة العراقية تستعمل للعطف والتَّرْحُمِ، ولكن الفرق بينها وبين كلمة (خَطِيئَةٌ) المستعملة في شعر السِّيَّابِ أَنَّ كَلِمَةَ (مَكْرُودٌ) تستعمل على سبيل إنكار الحال الذي هو فيه، في حين تستعمل كلمة (خَطِيئَةٌ) على سبيل العطف والشَّفَقَةِ، وعليه نجد أَنَّ الشَّاعِرَ لم يجد كلمة في المعجم العربيَّ يمكن أن تناسب المقام الذي عليه بطل النَّصِّ (حَمَدٌ) كما هو الحال مع السِّيَّابِ .

وسار على هذا النَّهْجِ أَيْضًا الشَّاعِرُ حَسِينُ مَرْدَانَ، فَلَا ((تَكَادُ تَخْلُو قَصِيدَةَ وَاحِدَةٍ مِنْ تِلْكَ الْمَفْرَدَاتِ الَّتِي تَتَّصِفُ بِأَنَّهَا مَوْغَلَةٌ فِي الشَّعْبِيَّةِ، أَي : لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ فَصِيحٌ، الْأَمْرُ الَّذِي أَضْفَى عَلَى لُغَةِ الشَّاعِرِ رِكَازَةً وَشَعْبِيَّةً وَاضِحَةً))⁽⁴⁷⁾، فَجَعَلَ أَحَدَ الْبَاحِثِينَ هَذَا الْاسْتِعْمَالَ تَمَرُّدًا عَلَى الْبِنَاءِ الشَّعْرِيِّ الْفَصِيحِ⁽⁴⁸⁾، فَقَالَ فِي قَصِيدَةٍ (طَابُوحَةٌ) :

وَأَنْتِ

فِي نَفْسِي الْأَيْتِقِ

طَابُوحَةٌ .. تَرُشُّ فِي وُجُوهِنَا الْبَرِيْقِ

....

⁽⁴⁵⁾ اطميش : الدكتور محسن، دير الملاك 176 .

⁽⁴⁶⁾ أمين : جمال حاسم، بحيرة الصمغ 16 . 17 .

⁽⁴⁷⁾ اطميش : المصدر السابق 178 .

⁽⁴⁸⁾ القصيري : الدكتور فيصل صالح، شعرية الاختلاف والتمرد في الشعر العراقي الحديث حسين مردان نموذجًا 40 .

وَمِنْ تَرَائِمِ الْغُبُونِ السُّودِ وَالْدُّمُوعِ

سَالُوفَةٌ لَيْسَ لَهَا مَثِيلٌ

...

وَمِنْ نَزَاكَةِ الْحَدِيثِ

ففي هذا المقطع نجد كلمات : (نَفْنُوفٌ، وطَائِبُوحَةٌ، وسَالُوفَةٌ، ونَزَاكَةٌ) وكلها كلمات مأخوذة من اللهجة العراقية، فأراد بـ (نَفْنُوفٌ) : الثَّوبَ الخاصَّ بالنِّسَاءِ، ولا تستعمله النِّسَاءُ إلَّا في الحفلات والزيارات الرِّسْمِيَّةِ، إذ الثَّوبُ الَّذِي ترتديه الفتاة في بيتها لا يسمى (نَفْنُوفًا)، وإمَّا يسمى (دَشْدَاشَةٌ) أو (ثوب)، وإمَّا استعمل الشَّاعر هذه الكلمة، لأنَّ قيد المقام فرض عليه هذا، فلم يجد في فصيح اللغة ما يؤدِّي هذا المعنى على الرَّغْمِ من كثرة الكلمات الدَّالة على أنواع الثِّيَابِ .

فضلاً عن ذلك فإنَّ استعماله كلمة (طَائِبُوحَةٌ) بمعنى : الحشرة الَّتِي تضيء ليلاً، أي : اليراعة، جاء موافقاً لسياق كلامه، لأنَّه على ما يبدو لي أيقن أنَّ استعمال كلمة (اليراعة) بعيد عن المتلقِّي، وأنصَّالها بالجمتمع الَّذِي يحاكيه ليس قوياً، فعدل إلى استعمال اللفظة القريبة منه .

أمَّا استعماله لفظه (نَزَاكَةٌ) وهي : الرِّقَّةُ واللفافة في التَّعامل وتأتي من رفاهية العيش ودلال الحياة، فهو استعمال شعبيٍّ عراقيٍّ ليس له أصل في كلام العرب⁽⁴⁹⁾، وقيل : أصله فارسيٌّ من (نازك)، بمعنى : الرِّقَّةُ والتُّعومة واللفظ⁽⁵⁰⁾، ومنه تسمى البنت (نازك)، فجاء استعمال الشَّاعر هذه اللفظة مناسباً للمقام الَّذِي يريد في القصيدة، إذ الجؤُ العامُّ لها غزل صريح تضمَّن مجموعة من أسماء أعضاء جسم المرأة كقوله : (نَهْدٌ، وَفَجْدٌ، وَسَاقٌ، وَخُصْرٌ) وغيرها، فهذا الجؤُ العامُّ لا يناسبه إلَّا استعمال كلمات تحمل ظلالاً دلاليَّة كثيرة .

ويطالعنا الشَّاعر عبد الرزَّاق عبد الواحد بنمط جديد من التَّأثُّر بـ (الازدواجيَّة)، إذ فرض عليه مقام الحرب أن يستعمل الأهازيج المشهورة في حياة المواطن العراقيِّ كما هي، لأنَّه يرى أن لو أعيدت صياغتها بالفصحى لفقدت ميزتها الجماليَّة، فجماها في تركيبها الشَّعبيِّ الَّذِي يدلُّ على ثقافة قائلها والجؤُ النَّفسيِّ الَّذِي يعيشه، فقال مثلاً في قصيدة (مصادرة منشور سرِّي)⁽⁵¹⁾ :

يَا وَلَدِي الْحَامِلِ عَنِّي زَهْوٌ دَفَاتِرِهِ

كُنْتُ أَدْفَعُ دَبَابِي فِي وُجُوهِ التَّمَّاسِيحِ

مَلْغُومَةٌ بِالْهَلَالِهِلِ

⁽⁴⁹⁾ ينظر : منق : علي بن لالي بالي بن محمد القسطنطيني، خير الكلام في التفصي عن أغلاط العوام 38 .

⁽⁵⁰⁾ ينظر : دوزي : رينهارت، تكلمة المعاجم العربية 10 / 201 .

⁽⁵¹⁾ عبد الواحد : عبد الرزاق، عبد الرزاق عبد الواحد الأعمال الشعرية 2 / 317 . 318 .

مَلْعُومَةٌ بِالْأَهَازِجِ

بِالشَّعْرِ

مَلْعُومَةٌ بِاللَّيِّ طَوَّحَتْ بِعَبَاءِ تَهَا وَهِيَ تَرْدِسُ

" هَزَيْتُ وَلَوْلَيْتِ لَهَذَا "

فاستعمل في هذا المقطع أهزوجة عراقية شعبية يصاحبها رقصة خاصة بالمرأة العراقية في جنوب العراق، ويسمى هذا النوع من الرقص (الرَّدْس)، إذ تقوم المرأة بالتلويح بعباؤها وهي تنشد هذه الأهازيج، وهو نوع من الحماسة واستنهاض الشباب، ففرض مقام النص على الشاعر أن يأتي بهذا التركيب العامي، لأنه لا يستطيع أن يعبر عما يريد إذا أعاد صياغة هذا المقطع بالفصحى .

2. الضَّرورة الشعريَّة وقيد الوزن : الضَّرورة الشعريَّة من المصطلحات التي اختلف فيها النحويُّون والنُّقاد كثيرًا، ((فذهب بعضهم إلى إطلاقها على كلِّ ما جاء في الشعر سواء أكان للشاعر عنه مندوحة أم لا، ومنهم من رأى أنَّها ما يضطرُّ الشاعر إليه اضطرارًا، بحيث لا تكون له عنه مندوحة، وفيهم من انتهى إلى أنَّ ما يسميه النُّحاة ضرورة ما هو إلاَّ خطأ، ومحاولة الاعتذار عنه تكلف لا داعي له، وبينهم من رأى أنَّها شذوذ أو رخصة، وغالى بعضهم فزعم أنَّ الشعر نفسه ضرورة، واهتدى قليل منهم إلى أنَّ هذا من لغة الشعراء، لأنَّ ألسنتهم قد ألفت ذلك ودرجت عليه))(52) .

ورد هذا الاستعمال في الشعر الحديث، ومنه قول السيِّاب :

أشكو إليك أذى الفؤادِ وإن تكُنْ لا ترجع الشكوى لصبِّ مُبتلي

فقال : (مُبتلي) التي جاءت على وزن اسم الفاعل في حين أنه يريد اسم المفعول (مُبتلي)، ولكنَّ قيد القافية منعه فجنح إلى التحرُّر منه إلى استعمال الشائع في اللهجة العراقية .

3. التَّفاهم ومراعاة الآخر : تعدُّ اللغة وسيلة مهمَّة من وسائل التَّفاهم بين الشعوب، إذ لولاها لانعدمت الحياة، وتتوطد العلاقة بين الشعب واللغة حين ينتمي أفراد الشعب إلى قوميَّة واحدة تحكمهم لغة واحدة، وبهذا تأخذ اللغة دورها الكامل في التَّفاهم إلى أبعد نقطة، فضلاً عن أنَّ أفراد الشعب يستطيعون أن يستعملوا اللغة بتصريفاتها البنائيَّة والاشتقاقية كلاً، فيؤدِّي إلى تطوُّر وسيلة التَّفاهم شيئاً فشيئاً.

ومن أمثلة هذا التَّأثر ما نجده عند الشاعر أحمد مطر في قصيدة (مكسب شعبي) إذ قال(53) :

حَمَلْتُ شَكْوَى الشَّعْبِ

(52) عبد اللطيف : الدكتور محمد حماسة، لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية 5 .

(53) مطر : أحمد، المجموعة الشعرية 63 .

فِي قَصِيدَتِي
لِحَارِسِ الْعَقِيدَةِ
وَصَاحِبِ الْجَلَالَةِ الْأَكِيدَةِ
قُلْتُ لَهُ :
شَعْبُكَ يَا سَيِّدَنَا
صَارَ "عَلَى الْحَدِيدَةِ"

فاستعمل الشَّاعر عبارة (على الحديدية)، وهو تركيب يدلُّ على الفقر المدقع الذي يعيشه الإنسان، وإنما فرضت وسيلة التفاهم على الشَّاعر هذا الاستعمال، فلو استعمل ما أتاحت له اللغة من ألفاظ لَمَا أعطت الدَّلالات التي يعطيها الاستعمال العامِّي، ولهذا كان هذا الاستعمال أسرع إلى فهم المتلقِّي لَمَا يريد المبدع .

وفرضت وسيلة التفاهم على الأديب صلاح الدِّين بوجه استعمال العامِّيَّة في روايته (سبع صبايا)، فيقول⁽⁵⁴⁾ :

سَبْعُ صَبَايَا فِي كَصْبَايَا

يَطِيحُ اللَّيْلُ ... وَنَاكُلُهُمْ

سَيِّدِي وَصَّانِي عَلِيَهُمْ

وَاللَّهِ مَا تُدَوِّكِيَهُمْ

فاستعمل الأديب بوجه في هذا المقطع من الرِّواية اللهجة الشَّعبية، لأنَّ قيد التفاهم أوجب عليه هذا الاستعمال، فلو استعمل الفصحى لَمَا أعطت الواقع الحقيقيَّ للمشهد الذي يريد تصويره .

الخاتمة ونتائج البحث

بعد هذه المسيرة السريعة مع قضية مهمَّة من قضايا اللغة العربيَّة الحديثة والمعاصرة، وهي قضية (الازدواجية اللغويَّة)، نخرج بمجموعة من النَّائج وهي :

1. لم تكن (الازدواجية اللغويَّة) حديثة، وإنما لها جذور في العربيَّة التراثية .

(54) بوجاه : صلاح الدين، رواية سبع صبايا 17 .

قوله : (كصبايا)، أي : قصبايا، وهو بيت القش، و(يطيح الليل) : يأتي الليل، و(تدوغيهم)، أي : تدويهم .

2. ليس وجود (الازدواجية اللغوية) في أي لغة، ولاسيما العربية، عيباً أو نقيصة، ففي مواضع تكون الحاجة ملحة لها .
3. تعددت مجالات تأثر اللغة العربية الحديثة بـ (الازدواجية اللغوية)، وتفاوت هذا التأثير بحسب أهمية المجال، وأبرز ما وجدته في : (لغة الإعلام، ولغة الأدب) .
4. تفاوتت لغة الإعلام في التأثير بـ (الازدواجية اللغوية)، فكانت النصوص والموضوعات التي تتناول السخرية والتهمك وانتقاد الواقع الاجتماعي والسياسي أكثرها وبعدها الفنية .
5. تأثرت لغة الإعلام المرئي والمسموع بـ (الازدواجية اللغوية) بعد زمن من تأثر لغة الإعلام المقروء، وبدأ هذا التأثير بالتطور تدريجياً حتى صار غالباً على ما نراه ونسمعه .
6. وجد الأدباء في استعمال اللهجة العامية ملاذاً للهروب من بعض القيود، ومنها قيد الوزن والقافية .
7. فرض المقام على الأديب استعمال اللهجة في النص الأدبي .
8. يعدّ التفاهم وسيلة مهمة من وسائل التواصل، ولهذا تأثرت لغة الأدب بـ (الازدواجية اللغوية) بسبب التفاهم .

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن حسنون : أبو أحمد عبد الله بن الحسين (386 هـ)، كتاب اللغات في القرآن، رواية ابن حسنون المقرئ بإسناده الى ابن عباس، تحقيق : الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط 2 / 1392 هـ . 1972 م .
2. ابن خالويه : أبو عبد الله الحسين بن أحمد (370 هـ)، مختصر في شواذ القراءات، نشره : براجستراشر، دار المحجرة .
3. ابن سلام : أبو عبيد القاسم بن سلام (224 هـ)، لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم، تحقيق : الدكتور عبد الحميد السيد طلب، مطبوعات ذات السلاسل، الكويت، 1404 هـ . 1984 م .
4. ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم (276 هـ)، الشعر والشعراء، تقديم الشيخ : حسن تميم، دار إحياء العلوم، بيروت، ط 2 / 1406 هـ . 1986 م .
5. ابن مجاهد : أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس (324 هـ)، السبعة في القراءات، تحقيق الدكتور : شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1972 م .
6. أبو زرعة : عبد الرحمن بن محمد بن زحلة (ق 4 هـ)، حجة القراءات، تحقيق : سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 5 / 1420 هـ . 2000 م .

7. الأحفش : أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي (215 هـ)، معاني القرآن، تحقيق : الدكتور فائز فارس، الشركة الكويتية، الكويت، ط 2 / 1401 هـ. 1981م .
8. الأزهري : أبو منصور محمد بن أحمد (370 هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق نخبة من الأساتذة، مطابع سجل العرب، مصر .
9. اطميش : الدكتور محسن، دير الملاك دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام دار الرشيد، بغداد، 1982 م .
10. الآمدي : أبو القاسم محسن بن بشر (370 هـ)، المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض أشعارهم، مكتبة المقدسي، القاهرة . مطبوع مع كتاب (معجم الشعراء) .
11. أمين : جمال جاسم، بحيرة الصمغ، منظمة الصحفيين والمثقفين الشباب المستقلة، ميسان، العراق، 2011 م .
12. الأنباري : أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد (577 هـ)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق : الدكتور إبراهيم السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1959 م .
13. البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (256 هـ)، صحيح البخاري صحيح البخاري المسمى (الجامع الصحيح المختصر)، تحقيق الدكتور : مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، واليمامة، بيروت، ط 3 / 1407 هـ. 1987م .
14. البلوي : أبو الحجاج يوسف بن محمد (604 هـ)، ألف با، المطبعة الوهبية، 1287 هـ .
15. بو جاه : صلاح الدين، رواية سبع صبايا، دار الجنوب، تونس، 2005م .
16. الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق : فوزي عطوي، دار صعب، بيروت .
17. الجوهرى : أبو نصر إسماعيل بن حماد (393 هـ)، الصحاح في اللغة والعلوم، طبعة : نديم مرعشلي، وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت .
18. الدارمي : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (255 هـ)، سنن الدارمي المسمى (كتاب المسند الجامع)، خدمه واعتنى به : نبيل بن هاشم بن عبد الله الغمري آل باعلوي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط 1 / 1434 هـ. 2013 م .
19. درو : اليزابيث، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة : محمد ابراهيم الشوش، منشورات مكتبة منيمنة، 1961م .
20. دوزي : رينهارت، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: جلال الخياط وشركاؤه، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1 / 2000 م .

21. الزغلول، محمد راجي : ازدواجية اللغة، بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج (9، 10)، السنة (3)، 1400 . 1401 هـ، 1980 م .
22. السرد بين الفصحى والعامية : الكتاب السوريون يدعون إلى اعتماد لغة سلسة؛ متأرجحة بين الفصحى والعامية، جريدة الاتحاد
23. سليمان : خالد، لغة الشعر بين الممكن والممتنع والمستحيل، بحث منشور في مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، المجلد (13)، العدد (1)، 1995 م .
24. السياب : بدر شاكر، أنشودة المطر، دار ومكتبة الحياة، بيروت، 1969 م .
25. سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان (180 هـ)، الكتاب، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، ط 1 / 1963 م .
26. الشنتمري، الأعلام أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى (476 هـ)، ديوان علقمة الفحل، تحقيق : لطفي الصقال، ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، ط 1 / 1389 هـ . 1969 م .
27. الشنتمري، الأعلام (476 هـ)، ديوان طرفة بن العبد، تحقيق : لطفي الصقال، ودرية الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ودار الثقافة والفنون، البحرين، ط 2 / 2000 م .
28. عبد اللطيف : الدكتور محمد حماسة، لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية، دار الشروق، القاهرة، ط 1 / 1416 هـ . 1996 م .
29. عبد الواحد : عبد الرزاق، عبد الرزاق عبد الواحد الأعمال الشعرية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 2 / 2000 م .
30. القالي : أبو علي إسماعيل بن القاسم (356 هـ)، أمالي القالي، مطبعة السعادة، مصر، 1373 هـ . 1954 م .
31. القصيري : الدكتور فيصل صالح، شعرية الاختلاف والتمرد في الشعر العراقي الحديث حسين مردان نموذجًا، بحث منشور في مجلة افكار، الأردن، العدد (254)، السنة 2010 م .
32. الكرمللي: أنستاس ماري، نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاها، المطبعة العصرية، القاهرة، 1938 م .
33. محمود : إبراهيم كايد، العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية، بحث منشور في المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الإنسانية والإدارية)، المجلد (3)، العدد (1)، ذو الحجة / 1422 هـ . مارس / 2002 م .
34. محيسن : الدكتور محمد سالم، المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية، دار الأنوار للطباعة، القاهرة.
35. المرزباني : أبو عبيد الله محمد بن عمران (384 هـ)، معجم الشعراء، تصحيح وتعليق الدكتور : ف . كرنكو، مكتبة المقدسي، القاهرة .

36. مطر : أحمد، المجموعة الشعرية، دار العروبة، بيروت، ط 1 / 2011 م .
37. منق : علي بن لالي بالي بن محمد القسطنطيني (992 هـ)، خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام تحقيق : الدكتور حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت، ط 1 / 1407 هـ . 1987 م .
38. الموسى : نهاد، الازدواجية في العربية ما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون، بحث منشور في أعمال ندوة (الازدواجية في اللغة العربية)، مطبعة الجامعة الأردنية، 1409 هـ . 1988 م .
39. النحاس : أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل (338 هـ)، شرح أبيات سيبويه، تحقيق الدكتور : زهير غازي زاهد، مطبعة الغري الحديثة، النجف، 1974 م .
40. نصار : دكتور حسين، ديوان عبید بن الأبرص مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط 1 / 1377 هـ . 1957 م .
41. الوزان الحنفي : محمد بن علي المظفر، لغات القرآن المروية عن ابن عباس، قدم له وحقق نصّه وعلق عليه : الأستاذ الدكتور عبد الرحمن مطلق الجبوري، والدكتور إبراهيم عبود السامرائي، دار المسيرة، عمان، ط 1 / 1430 هـ . 2010 م .
42. يعقوب : إميل بدیع، فقه اللغة العربية وخصائصها، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1 / 1982 م .